محكم

نيتشه ونقد المعرفة التاريخية الحديثة

الحسين أخدوش

باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

تقديم

قبل الحديث عن النقد الذي وجهه نيتشه للتاريخ بمعناه الميتافيزيقي الذي يزعم أنه معرفة موضوعية بالماضي، نود أولا أن نشير إلى أن المنظور الذي ترسمه انتقادات نيتشه للتاريخ والمؤرخين لا تحكمه خلفيات معرفية أو غايات ابستمولوجية؛ بل على عكس ذلك، نجد نيتشه في "اعتبارات في غير أوانها"، ينتقد تاريخ المؤرخين من منظور يتجاوز التاريخ نفسه، ذلك أن تاريخهم يفترض نفسا وحقيقة خالدتين. إنه ينهل من وعي لا يكف عن مطابقة ذاته[1]؛ فهذا التاريخ هو ما زعم البعض أنه معرفة موضوعية، غير أنه بهذا المعنى قد أصبح في قبضة الميتافيزيقا، فظل التقليد الميتافيزيقي يراوح فهما متحجرا للماضي والحاضر، للأصل والهامش.

لكن، وفي مقابل ذلك، يتعامل نيتشه مع مشكلة "التاريخ" بمنظور مخالف لهذا التقليد؛ فقد أصبح منظوره الجديد هذا يأخذ بعين الاعتبار الارتباط القائم بين "إشكالية التاريخ" وبين ما يسميه بـ «Wirklich historie » ؛ أي التاريخ الفعلي بما هو نوع من البحث الجديد عن النسب« Herkunft » والأصل « Uesprung» كما تتصور ذلك الجينالوجيا[2]. فإذا كان التاريخ الميتافيزيقي يحتفي بالبداية كأصل، فإن تاريخ الجينالوجيا لا يمجد هذا " الأصل" ولا يحتفي به، بل يحظى لديه بالاستخفاف والسخرية، إذ كيف يمكن الاحتفاء به مادام فهمه ينقص من شأنه.[3]

إن انحراف التاريخ الميتافيزيقي كان يتغذى من اعتبار أن الاشياء في بدئها كانت تتوفر على ما هو نفيس وجوهري. وهذا ما يفتح المجال للحديث عن الأصل الأسمى كفائض في النمو يفترض دوما أنه موجود قبل السقوط والتدهور، قبل الجسد والعالم و الزمن.

يفتح هذا المنظور الميتافيزيقي المجال للحديث عن كون الأصل يقع بجوار المقدسات، وهو بصحبتها دائما، غير أن البداية التاريخية حسب نيتشه تقع دوما في الأسفل، وبذلك فهي لا تستحق غير الاستخفاف و السخرية و إسقاط كل مظاهر الزهو عنها.[4]

إن التاريخ إذن، يجب أن يكون هو جينالوجيا، وهو تاريخ يؤول الأخلاق والمثل والمفاهيم الميتافيزيقية، ليفككها ويشتت وحدتها المزعومة. إنه تاريخ مفهوم الحرية والزهد والقوة والإرادة.. لهذا فهو مصدر انبجاس كل التأويلات المختلفة، لأجل إظهارها كما لو أنها حوادث ماثلة على مسرح الإجراءات المرعبة.

[1]- فوكو ميشيل، **جينيالوجيا المعرفة**، ترجمة أحمد السطاتي و عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، بدون تاريخ، ص 76

[2]- Lecture de Nietzsche par M. Foucault et autres, Nietzsche, la géométrie, l'histoire, livre de poche. L.G.F, 2000

[3] -F.Nietzshe: Aurore, tr par Julien Hervier. Ed Gallimard.1980. p. 47

[4]- ميشيل فوكو، **جينالوجيا المعرفة**، مرجع سابق، ص 67

ليس غرض نيتشه إذن من هذا التاريخ، تقديم بديل معرفي أو بناء فلسفة أخرى للتاريخ، بل هو جعل التاريخ نفسه أداة توزيع وتشتت، تدع الفوارق والهوامش تعمل، فلا يستند إلى ثابت من الثوابت، بل يكون نظرة مفتتة وقادرة على أن تفتت نفسها، وتمحو وحدة الإنسان الذي يزعم أنه بإمكانه أن يحصل نظرة موضوعية بماضيه[5]. من هذا المنطلق يصبح التاريخ فعليا «Wirklich historie»، فبقدر ما يقحم من الانفصال في وجودنا، يحفر الأساس الذي نسعى لإقامته عليه، ويكسر منظورنا لاتصاليته. وهنا يصبح كذلك أقرب إلى الطب منه إلى الفلسفة، إذ لن يعود أداة المعرفة، بل سيصبح أداة تشخيص المرض. فبدلا من أن يحكي الميلاد الضروري للحقيقة والقيمة، يصبح تلك المعرفة التفاضلية للقوة والضعف، للارتقاء والانهيار، للسموم والأدوية. إنه باختصار علم الأدوية والعلاجات.

يتجاوز نيتشه، بهذا المعنى، التاريخ الميتافيزيقي الذي اعتاده المؤرخون كنمط متحجر للمعرفة الموضوعية إلى ما يسميه "الحس التاريخي"[6] كمعرفة منظورية، الشيء الذي يجعل هذا التاريخ يتحرر من النموذج الميتافيزيقي والأنثربولوجي للذاكرة ليصبح ذاكرة مضادة؛ أي أن هدفه ليس استرجاع جذور هويتنا، وإنما القضاء عليها، ذلك أنه لا يأخذ أساسا على عاتقه رصد المنشأ الوحيد الذي صدرنا عنه، وذلك الموطن الأصيل التي تعدنا الميتافيزيقا بالرجوع إليه؛ وإنما يسعى لإظهار كل تلك الانفصالات والانكسارات التي تخترقنا.

إن التاريخ، بهذا المعنى، هو العلاج الذي يجعل استعمالنا له يكون نقديا لمحاكمة الماضي وقطع جذوره، وكذا لمحو تلك القدسية التي أصبغته به الميتافيزيقا، بغية تحرير ذواتنا وانتشالها من العدمية السلبية، وكذا من ضرر التاريخ بالإنسان.

فكيف إذن، سيعتبر نيتشه التاريخ مضرا بالحياة من حيث كونه لا يزود الأفراد والشعوب بما من شأنه أن يفيدهم في حياتهم؟ هل فعلا تعتبر الصفة المميزة للتاريخ أنه لا يفيد في شيء أم أن الذي لا يفيد هو فقط تاريخ بمعنى معين؟ ما الذي يجعل التاريخ حسب نيتشه يضر ويسبب الشلل للحياة[7]؟ وكيف يمكنه أن يصبح نافعا للأفراد والشعوب والأمم؟

[5]- La lecture de Nietzsche, par M. Foucault et autre, op.cit, p. 177

[6]- يقترح نيتشه مفهوم الحس التاريخي كممارسة جديدة للتاريخ يجعل التاريخ ينفلت من قبضة الميتافيزيقا، و يصبح أداة فعالة للجينالوجيا. إنه يرمي إلى الصيرورة على عكس التاريخ المتعارف عليه لدى المؤرخ، فهو يقلب العلاقات التي تقام عادة بين بزوغ الحدث و الضرورة المستمرة. إنه ضد التقليد اللاهوتي و العقلاني. انظر بهذا الصدد المقالة الثانية " الاعتبارات في غير أوانها" و كذلك، جينالوجيا المعرفة لميشيل فوكو، ص ص 76-77

[7]- بدوي عبد الرحمان، **النقد التاريخي**، وكالة المطبوعات القومية، الطبعة الرابعة، الكويت، 1981، ص 250

لتعميق البحث في منظور نيتشه هذا للتاريخ سنحاول في القسم الأول من هذا البحث أن نقدم انتقاداته للمعرفة التاريخية من خلال المقالة الثانية من الاعتبارات في غير أوانها[8]، التي يستعرض فيها هذا الفيلسوف منفعة التاريخ ومضرته بالحياة، ثم بعد ذلك ننتقل في القسم الثاني إلى الحديث عن خصائص الحس التاريخي، بما هو استراتيجية جديدة للنقد والتقويض، ثم نبين أهمية المنظور الجينالوجي للتاريخ بما هو تشخيص نقدي للأخلاق والقيم والثقافة.

القسم الأول: انتقادات نيتشه للتاريخ

1- سياق نقد نيتشه للمعرفة التاريخية

يأتي انتقاد نيتشه للمعرفة التاريخية في سياق فلسفي عام، يتمثل في نقد المعرفة العلمية الحديثة في بعديها الطبيعي و الإنساني[9]. فقد عرفت الثقافة الأوروبية في القرن 19م ظهور ما يسمى بالعلوم الوضعية (Sciences positives) والعلوم الإنسانية (Sciences humaines)، وكان للعلوم التاريخية دور الريادة في بلورة نموذج العلوم الإنسانية، مثلما كان للفيزياء دور الريادة في قيام العلوم الطبيعية. كانت المنهجية العلمية أهم ما يميز نشوء وتقدم هذه العلوم، فكانت تحقق انتصاراتها المتتالية، حتى اكتسبت قيمتها وفعاليتها ونجحت نتائجها؛ لكن هذه القيمة حسب نيتشه تخفي وراءها عدمية[10] لا تقل عن عدمية الميتافيزيقا والمعتقدات الدينية المسيحية التقليدية.

فقد فطن نيتشه منذ البداية إلى أن ما يميز المعرفة العلمية الحديثة في مجملها هو صدورها عن تقليد ثقافي لا يتوانى عن التلون بألوان مزيفة، ذلك أن هذه المعرفة إذا كانت قد كسبت مشروعيتها في إطار نقدها وتجاوزها للدين والفلسفات التقليدية، فإنها في عمقها لا تعدو أن تكون معارف مقنعة تسعى إلى بسط هيمنتها على الحياة بدعوى نفعيتها وسعيها إلى إسعاد الإنسان الأوروبي.[11]

بذلك استوجبت المعرفة العلمية الحديثة ممارسة درجة عليا من الشك بصددها لكشف عدميتها وضررها بالحياة من خلال قناع الموضوعية والمنفعة والتكيف والضبط.[12] إنها تخفي وراءها قوى الارتكاس[13] ونزوعا ميتافيزيقيا وأخلاقيا.

---

[8]- F.Nietzshe, considérations inactuelles, trad. Pierre Rusch. tomes 1 et 2, Gallimard, 1990

[9]- F.Nietzshe, généalogie de la morale, trad. Isabelle Hildenbrand et Jean Gratier, Gallimard, 1971, p. 186

[10]- جيل دولوز، **نيتشه و الفلسفة**، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، ط 2، بيروت، 2001، ص 61

[11]- F.Nietzshe, généalogie de la morale, op.cit. p. 182

[12]- جيل دولوز، مرجع سابق، ص 95

[13]- القوى الارتكاسية هي صفات أصلية خاصة بالقوة التي تتسم بكونها ردود أفعال و هي عبارة عن أدوات العدمية عند نيتشه، لأنها تقوم على النفي الذي يهوي بنا إلى القاع المقلق الذي تحرج منه القوى الارتكاسية. (انظر جيل دولوز، نيتشه و الفلسفة، ص ص 70-71-72-73)

من ذلك أصبح العلم الحديث في مجمله، طبيعيا كان أو إنسانيا، يفسر الظواهر المختلفة انطلاقا من قوى الارتكاس، ولهذا فهو يجهل كيف يجعل من اكتشاف القوى الفاعلة[14] انتصارا للحياة. فكل ما يفعله العلماء في نظر نيتشه هو الانتصار لتلك القوى الارتكاسية، حينما يسعون بلا كلل ولا ملل إلى أن يوثقوا بها الفكر فيتذرعون بضرورة احترام الواقع والموضوعية[15].

إن هؤلاء العلماء المحدثين بفعلتهم تلك، عبارة عن نساك وكهنة جدد. إنهم أعداء الحرية والحياة، إذ سقطوا في أسر العلم الذي كان سقراط نموذجه وأصله، ذاك العلم الذي يجعل العقل فوق الحياة[16]، فبخسها حقها الذي تستحقه. لهذا فالمعرفة العلمية الحديثة كلها أسيرة "المثال الزهدي"، بل إنها في صورة لا واعية ولا إرادية هي خير عون لهذا "المثال الزهدي" وأشد أعوانه تخفيا وتسترا[17].

يبدو في نظر هذا الفيلسوف إذن، أن العلم الحديث الذي يدعي أنه يعترض على وجود عالم ماورائي، إنما يقوم في حقيقته على استبدال العالم العلمي نفسه الذي وضعه "نيوتن" بهذا العالم الوهمي، فلا فرق بين العالم المطلق الميتافيزيقي وعالم الفيزياء الميكانيكي؛ فالعلم الحديث يشبه الدين من حيث كونه يقاسمه الغاية والهدف[18]. فإذا كان العلم يهدف إلى رفع الأمد وإطالة العمر أكثر مما يمكن، ومن ثم تحقيق السعادة للإنسان، فهو يعني أنه تحول إلى نوع من الوعد بالهناء الخالد. وما هذا الوعد نفسه إلا وعد اللاهوت الذي يعدنا بالخلود، مع وجود فارق بينهما، حيث إن وعد العلم يبقى متواضعا جدا بالمقارنة مع الوعد الديني.

ليست المعرفة العلمية الحديثة إذن، نقيضا للدين والميتافيزيقا والأخلاق كما يزعم، إذ كان نيتشه يشبه هؤلاء العلماء بوعاظ الدين وكهنته. لقد قفزوا في نظره إلى المقدمة ليستأنفوا الدور الوعظي الذي كان يقوم به رجال الدين، فواصلوا القيام بالمهمة نفسها، لكن هذه المرة باسم العلم؛ فالعلم كما أنتجته الثقافة الغربية الحديثة المريضة ليس نقيضا للميتافيزيقا، بل هما في الجوهر شيء واحد.

إن تحامل نيتشه هذا على المعرفة العلمية بما هي عائق أمام الحياة، وكذلك بما هي لاهوت متنكر، يجد في العلوم التاريخية التي ازدهرت في القرن التاسع عشر خير معبر عن الانحطاط الذي طال المعرفة العلمية عموما والتاريخ خصوصا. لهذا خص نقده للتاريخ بمقالة مستقلة في "اعتبارات في غير أوانها" في الجزء الثاني منها، حيث يبين فيها فوائد التاريخ ومضاره للحياة، وهي المقالة التي ظهرت أول مرة في فبراير سنة

---

[14]- القوى الفاعلة: عكس القوى الارتكاسية، هي فعل و ليس رد فعل، إنها إثباتية، أي تثبت نفسها و اختلافها، فما هو " نعم" من وجهة نظرها يصبح "لا"، إنها خير معبر عن إرادة الحياة، عكس الارتكاسية التي تعبر عن إرادة العدم (انظر المرجع السابق).

[15]- جيل دولوز، مرجع سابق، ص 95

[16]- نفسه، ص 128

[17]- F.Nietzshe, généalogie de la morale, op.cit, p. 188

[18]- Ibidem

1874 م، وقد أتت بعد مجموعة من الكتابات والمؤلفات الأولى، كالجزء الأول من "الاعتبارات في غير أوانها" المخصص "لدافيد شتراوس" سنة 1873 م، ثم "الفلسفة في عصر المأساة" سنة 1872 م، و"نشأة المأساة من روح الموسيقى" سنة 1870 م، إضافة إلى المؤلفات والأبحاث الفيلولوجية الأولى.[19]

يتحدث نيتشه في مستهل هذه المقالة عن دواعي نقده وتحامله على التاريخ، متهما إياه بإلحاق الضرر بالحياة قائلا: "... ما غالينا في التاريخ أو ثمناه كثيرا إلا و انحلت الحياة و ذبلت".[20] لهذا، فكلما استكثرنا من المعرفة التاريخية كان الانحلال الذي يصيب الحياة سببا في جعل التاريخ نفسه في خطر،[21] بل مرضا. لذلك سيعلن نيتشه في استراتيجيته لنقد التاريخ بما هو معرفة ناشئة ومزهوة بذاتها، أنه لا يريد خدمة التاريخ إلا في الإطار الذي يصلح فيه هذا الأخير للحياة.[22]

هكذا، ينتقد إذن نيتشه التاريخ من مدخل الضرر الذي يلحقه بالحياة، وبذلك يضعه في سياق الانحطاط العام الذي جاءت به الحداثة العلمية؛ ولعل الداء الذي جلبته هذه المعارف هو الموضوعية بما هي تعبير عن صحة الوقائع التي يفتخر بها التاريخ الحديث، الشيء الذي جعل من المؤرخ مجرد شخصية هزلية يتم محوها لكي يفسح المجال للآخرين، وبذلك يكون بلا إرادة خاصة به ولا ذوق يميزه. إنه كاهن ينتمي إلى عائلة الزهاد.[23]

وإذا كان المؤرخ بالشكل المذكور، فإنه لا شيء ينتظر من معارفه، ذلك أنها مجرد سموم قاتلة، إنه لم يتعلم بعد كيف يجعل من التاريخ ودراسته وسيلة لخدمة الحياة؛ فالتاريخ أساسا يدرس من أجل خدمة الحياة.[24] لهذا، فهو يهم قبل كل شيء الإنسان الفاعل القادر الذي يكشف الصراع الكبير، ويكون في حاجة إلى نماذج وسادة ومساندين.[25]

وهكذا يتضح أنه من خلال هذه الاعتراضات التي يوجهها الفيلسوف نيتشه للممارسة التاريخية كما كانت سائدة في عصره، أنه يريدنا أن نلج مختبر التاريخ في إطار الحس الفلسفي النقدي لا بالمعنى المألوف للنقد، لكن بمعناه الجينالوجي، الذي يجعل الفيلسوف طبيبا للحضارة الحديثة، من أجل توسيع تخوم تلك المجالات التي ضيق أفقها التاريخ الميتافيزيقي.

---

[19]- بدوي عبد الرحمان، **الموسوعة الفلسفية، مادة نيتشه**، ج 2، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط 1، بيروت، 1984

[20]- F.Nietzshe, considérations inactuelle, trad. Pierre Rusch. tome II, Gallimard, 1990, p. 93

[21]- Ibid, p. 103

[22]- Ibid, p. 93

[23]- F.Nietzshe, généalogie de la morale, op.cit. p. 183

[24]- F.Nietzshe, considérations inactuelle, tome II, op.cit. p. 102

[25]- Ibid. p. 103

ففي هذا الإطار، يندرج حديثه عن ضرورة تملّك الحس التاريخي، بما هو حس نقدي يحتفي بالصيرورة ويجعل الثبات مزيفا، وكل شيء إنما خاضع لهذه الصيرورة، ومن ثم لا مجال للحديث عن المعطيات الخالدة والحقائق المطلقة في التاريخ. فكيف يبسط هذا الفيلسوف إذن، اعتراضاته على التاريخ في المقالة الثانية من الاعتبارات في غير أوانها؟

2- في الحاجة إلى التاريخ أو عدمها.

في مستهل تقديمه للمقالة الثانية من "اعتبارات في غير أوانها" يصرح نيتشه أننا: " بالتأكيد في حاجة إلى التاريخ، لكننا بحاجة أيضا على خلاف ذلك إلى المتسكع الذي سينظف حدائق المعرفة، حتى وإن كان سيزدري فقرنا وحاجتنا المبتذلة بدون تعاطف".[26]

إن تخمين الدافع الذي جعل نيتشه يحث على قيمة الدراسات التاريخية أو عدمها، وكذا الاهتمام المتزايد بالتاريخ بشكل عام، يفرض الحديث عن مدى حاجة الإنسان إلى هذا التاريخ من عدمها. ولهذا يضع نيتشه حديثه عن التاريخ والمعرفة التاريخية في إطار صلاحيتها وحاجة الحياة إليها. فنحن نكون بحاجة إلى التاريخ لكي نعيش ونتصرف بحرية، وليس لكي نحيد بسهولة عن الحياة والفعل، كما نكون بحاجة إليه كذلك لنحسن حياة خاصة وأفعالا رخوة وحقيرة.[27]

لهذا أصبحت الحاجة إلى النقد تجاه المعرفة التاريخية ملحة وضرورية، وقد حدد نيتشه في الفقرة الخامسة من هذه المقالة، أن الإفراط في التاريخ يضر بالحياة من عدة وجوه، منها:[28]

أ- أنه يولد في الإنسان التعارض مسبقا بين ما هو داخلي وما هو خارجي، كما أنه يضعف الشخصية.

ب- أنه يقنع عصرا بعينه بكونه يحوز العدالة والفضيلة النادرة إلى درجة كبيرة مقارنة مع أي عصر آخر.

ج- أنه يشوش غرائز شعب ويعوق نضج الفرد وكذلك الجماعة.

د- أنه يزرع دائما الاعتقاد الضار في شيخوخة البشرية والاعتقاد في كون الذات مجرد مقلد أتى متأخرا.

---

[26]- Ibid. p. 93
[27]- Ibid. p. 93
[28]- Ibid. p. 121

ه- أنه يقحم عصرا ما في حالة خطيرة من السخرية وجها لوجه مع الذات، ويجعلها في وضعية كلبية أكثر خطورة، تخدم غايات أنانية من خلالها تصبح جميع القوى الحيوية في الإنسان نفسها مشلولة ومدمرة في النهاية.

يظهر من هذا إذن، أننا لا نحتاج إلى التاريخ إلا بالقدر الذي بواسطته ستنتعش دوافعنا وسلوكاتنا بعيدا عن الاجترار والانغماس في الماضي. لذا، بقي الإنسان الذي يسعى إلى تحسس الأشياء بطريقة تاريخية مباشرة ومطلقة، مثل من يسهل تخديره، أو مثل الحيوان الذي يحيا فقط على اجترار نفس المواد الغذائية.[29] فالإفراط في المعارف التاريخية إذن، هو ضياع للحياة واستلاب للحظة والحاضر من طرف الماضي.

إن المعارف التاريخية كما يقدمها المؤرخون، هي مجرد إقحام وجهات نظر معينة ترى الأحداث التاريخية عبارة عن تعاقبات تسعى إلى غايات معينة. وهنا يتحول التاريخ إلى مجرد ذاكرة مثقلة بالأوهام، الشيء الذي يستدعي طرح السؤال حول ما إذا كان الحيوان، حسب نيتشه، الذي يعيش بطريقة "غير تاريخية" لا يملك ذاكرة، ومن ثم فهو أكثر سعادة من الإنسان.

يسخر نيتشه من هذه الوضعية المأزومة للإنسان الحديث، متسائلا حول "إمكانية أن يعيش هذا الأخير من دون ذاكرة[30]، ذلك أنه سيكون أحسن حالا من تعلقه بالأوهام الملتصقة بالماضي؛ فالاستغناء عن الذاكرة قد يكون محبوبا ومأمولا، لكن الاستغناء عن النسيان كملكة ضرورية، أمر لا يحتمل، بل إنه مستحيل تصوره. فليس بإمكان أي كان أن يعيش بدون نسيان.[31]

إن ملكة النسيان ضرورية للفرد، لأنها تساعد الإنسان على حفظ الحاضر من ثقل الماضي. إنها تخدم الحياة أكثر مما تخدمها الذاكرة التي تكتفي بتكبيل الإنسان وإثقال كاهله. فالنسيان مقترن دوما بالصحة، إنه العلاج القادر على شفاء الفرد وكذا الشعب والحضارة من أمراض التاريخ المزمنة.

لهذا ينبغي أن يكون هناك حد معين يجب من خلاله نسيان الماضي، ولتحديد هذا الحد الذي انطلاقا منه يتحقق نسيان الماضي، يجب تحديد ما هي هذه القوة المفجرة[32] التي ستتيح لأي كان أن يطور نفسه بطريقة أصيلة ومستقلة، فيشفي جراحاته ويرمم خسائره، ويعيد بناء الصور المحطمة في أعماقه الخاصة.[33]

---

[29]- Ibid. p. 97

[30]- في أصل " الأخلاق " المبحث الثاني، الفقرة 1 يهاجم نيتشه الذاكرة مقارنة بالنسيان قائلا: " هذا الحيوان النسّاء بالضرورة، و الذي يكون النسيان بالنسبة إليه قوة و تجليا لصحة متينة، خلق لنفسه ملكة معاكسة، هي الذاكرة، سوف يحبط بواسطتها النسيان، في بعض الحالات". أورده جيل دولوز في كتابه " نيتشه و الفلسفة"، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، الطبعة الثانية، 2001

[31]- Ibidem..

[32]- نضع هنا لفظ القوة المفجرة في مقابل اللفظ الفرنسي Force plastique

[33]- Ibidem.

فلعل انعدام هذه القوة المفجرة عند بعض الناس هو ما جعلهم يحرمون من القوة الكافية لمواجهة الأحداث القاسية والمؤلمة. فألم واحد خفيف يكفي لإفراغهم من كل صبرهم بشكل غير قابل للعلاج. أما الذين لا يتأثرون إلا قليلا بالكوارث المرعبة والمخيفة، وحتى من أفعالهم الشريرة، فإنهم يجدون سعادة وراحة ضمير.[34] إن التاريخ ليس مجرد توالي أحداث وأمجاد يستلزم فهمها البحث عن روح مزعومة للتاريخ كما يذهب إلى ذلك هيجل.

فالنزعة التاريخية المصابة بحمى التاريخ، والتي جثمت على القرن التاسع عشر، هي التي جعلت البعض يفهم هذا التاريخ على أنه المستودع الكبير لكل شيء[35] (معارف وأحداث)، بل لقد بلغ التاريخ مع هذه النزعة حدا أقصى، جعل العقل البشري يتوهم أنه وصل من التجريد والتصور حدا يطابق فيه الواقع.[36] وبموازاة مع هذه التجريديات العقيمة، ظل الابتعاد عن الحياة سمة هذه التصورات المثالية، الشيء الذي جعل الكلام حول الإنسان والحياة بشكل عام ينحط إلى العدم.

على خلاف ذلك، يرى نيتشه أن إقحام أية إرادة عليا في التاريخ تكون محايثة له، هو ما يجعل منه لاهوتا لا يقل سوءا عن اللاهوت الديني. ولهذا السبب، نجد أن التصورات الدينية المسيحية والميتافيزيقية تعزز من مكانة هذا التاريخ[37] ودوره المعرفي والثقافي بما يخدم استراتيجيه المنظور العدمي لهذه الأخيرة.

وهكذا، يستدعي هذا الوضع الذي آل إليه التاريخ، إجراء تشريح تقويمي لهذا المعطى بما هو معطى مريض، وذلك انطلاقا من فحص طبي للعنصرين: التاريخي واللاتاريخي بما هما عنصران مرتبطان بصحة الفرد والشعب والحضارة. فما هي قيمة كل من العنصر التاريخي والعنصر اللاتاريخي؟ وما دور كل واحد منهما في خدمة الحياة؟

أ- قيمة العنصر التاريخي والعنصر اللاتاريخي

في مدار حديثه عن العنصر التاريخي والعنصر اللاتاريخي وأهمية كل واحد منهما للحياة، يعترف نيتشه أن كلا هذين العنصرين ضروريان لصحة الأفراد والأمم والحضارة[38]؛ غير أنهما ليسا على درجة واحدة من القيمة. لهذا يقابل بينهما بشكل يجعل العنصر اللاتاريخي أفضل للحياة من العنصر التاريخي. فكيف ذلك؟

---

[34]- Ibidem.

[35]- « يقدم لنا التاريخ بدل النشاط النوعي سلالات و شعوبا و طبقات و كنائس و دولا...و كذلك يقدم لنا التاريخ بدل العدالة و سيرورة تدميرها الذاتي مجتمعات لا تريد أن تهلك، و لا تتخيل شيئا أعلى من قوانينها» يورده جيل دولوز في كتابه: نيتشه و الفلسفة، مرجع سابق، ص 177

[36]- Ibid.pp 136-137

[37]- إن التاريخ بهذا المعنى هو العامل الذي يفتح المجال للقوى الارتكاسية لتستولي على الثقافة و تحرفها لحسابها. و لهذا فليس انتصار القوى الارتكاسية عرضا في التاريخ، بل هو مبدأ التاريخ الشامل. انظر: نيتشه و الفلسفة، مرجع سابق، ص 178

[38]- Ibid. p. 98

إذا كان المؤرخون قد دأبوا على تمجيد العنصر التاريخي من حيث هو عنصر معرفي يحقق لهم شرط المعرفة الضروري، فإن إجراء نقديا تجاهه، يجعله يقلص دوره ويحجمه بما يسمح للفرد امتلاك القدرة على التخلص منه ومن ثقل المعرفة التاريخية برمتها؛ تلك المعرفة التي تمسك بعنق الإنسان وتقيده بالأغلال وتحجم حركته. لهذا فمتى استوعب الفرد قيمة العنصر التاريخي و استخف به من دون احتفاء ولا تمجيد، كانت له القدرة الكافية على استعمال الماضي لصالح الحياة، حينئذ يستطيع أن يعيد بناء وصياغة منظوره الجديد للتاريخ انطلاقا من الأحداث التي يقوى على ردها إلى بعدها اللاتاريخي.

يشكل هذا البعد اللاتاريخي الغلاف الواقي الذي بدونه لا يمكن أن يبدأ الإنسان أو أن يجرؤ على البدء من جديد في الوجود؛ فهو بمثابة العنصر اللاتاريخي الذي يسمح للحياة أن تكون قادرة على أن تظهر وتحافظ على تماسكها[39]. ولهذا السبب تحديدا يضعه نيتشه في درجة أكثر أهمية مقارنة بالعنصر التاريخي.

فالحيوان الذي حُرم كلية من الحس التاريخي من حيث أفقه الذي يُختَزَل تقريبا في مطلب بسيط، يعرف على الأقل نوعا من السعادة، وهو بذلك ينفلت من الضجر الذي يسبب فيه سلوك النفاق والإخفاء الذي يميز الإنسان.[40]

فغياب الحس التاريخي مثلا عند الحيوان، هو الذي جعل وجوده بسيطا بلا تعقيدات، وخارج دائرة الصراع، وهذا على خلاف الإنسان تماما؛ فهو يجد نفسه في قلب الصراع، فتتجاذبه الأحداث والوقائع، مما يفرض عليه ضرورة أن يمتلك الحس التاريخي.[41] وبما أن الحيوان يعيش بلا تاريخ، فإنه لا يعرف سوى اللحظة، حيث يسيطر العنصر اللاتاريخي، فيجعل الغرائز تعمل بكل حيوية وبلا قيود.

بخلاف ذلك، نجد العنصر التاريخي هو مصدر استلاب اللحظة والحاضر، حيث يقف في وجه الإرادة الفردية، ويكبح جماح إرادة القوة، فيكون عنصرا لا تحرريا وارتكاسيا. ولعل مشكلة الإنسان المعاصر أو الثقافة الحديثة كما يزعم نيتشه، هي الإفراط في المعارف التاريخية إلى حد التخمة[42]. وقد نتج عن هذا الإفراط اعتقاد زائف يجعل من يملك المعارف التاريخية أكثر تثقيفا من الآخرين، حتى وإن كان ذلك مجرد بلاهة وعته، تغطي الوجه المنحط للثقافة[43] الحديثة وانحدارها إلى مستوى العدمية.

---

[39]- Ibid. p. 99
[40]- Ibid. p. 98
[41]- Ibid. p. 111
[42]- Ibid. p. 116
[43]- تحتل فكرة الانحطاط التاريخي للثقافة مكانة متميزة عند نيتشه، إذ يتخذها ذريعة في صراعه ضد فلسفة التاريخ و الدياليكتيك، انظر "نيتشه و الفلسفة" مرجع سابق، ص 178

لهذا يعود نيتشه، ليضع ثقته في العنصر اللاتاريخي من أجل إضفاء بعد ما فوق تاريخي على الثقافة، على اعتبار أن هذا البعد هو ما جعل الإغريق مثلا لم يفكروا بطريقة تاريخية، مما فسح المجال لفعالية مؤرخيهم أن تكون مقادة بالحياة وليس بالبحث عن المعرفة[44]. ومن هذا المنطلق، يحدد نيتشه مهمة ذوي الأفكار ما فوق- تاريخية في أن يقبلوا بإجماع الخروج على قواعد التحليل التاريخي، وأن يعتبروا الماضي والحاضر شيئا واحدا.[45]

إن المفكر ما فوق تاريخي[46] هو الذي ينير عتمة تاريخ الشعوب والأفراد، كاشفا عن المعنى الأصلي لـ «هيروغليفياته المختلفة» ومنعطفا بضجر نحو مد غزير للعلامات الجديدة[47]. لذلك عندما يكون الإنسان قادرا على إدراك وتنسم هواء العنصر اللاتاريخي الذي يقع في داخله كل حدث تاريخي كبير؛ فإنه قد يقدر بعد ذلك، باعتباره ذاتا معرفية على الترفع من وجهة نظر ما فوق تاريخية،[48] ليتخطى منطق الدراسات التاريخية.

إن الأشخاص ذوي الميول غير التاريخية يعتقدون أن معنى الوجود، إنما ينكشف بالتطور والصيرورة، وبذلك فهم لا ينظرون إلى الوراء (أي الماضي) إلا ليفهموا الحاضر مستضيئين بنور الطريق الذي سلك مسبقا، وذلك من أجل تعلم ابتغاء المستقبل بشوق كبير. إن هؤلاء الذين يفكرون ويتصرفون بالطريقة غير التاريخية، ومع أنهم على هذا الحال، فهم لا يعلمون كم كان سبيلهم و فعاليتهم مفعمين بالحياة.

عندما يخدم التاريخ الحياة، فإنه يخدم قوة غير تاريخية، وحينها لا يصبح علما خالصا كما هو الشأن بالنسبة للرياضيات مثلا. أما إذا اعتبر كذلك، فإنه سيكون بالنسبة للإنسانية مجرد حصيلة ونوعا من الختم للوجود.[49] وفي هذه الحالة (أي الحالة الثانية) تستبدل الحياة الحقيقية بالحياة الوهمية، تلك الحياة الناتجة عن التأمل، فيكون الوجود الذهني ذا قيمة عليا، ثم يعزى إلى التخيلات المستقاة من وهم الحقيقة المطلقة الأولوية على كل الدوافع الحيوية التي بإمكانها أن تدفع بالحياة إلى الأمام.

إن الوهم الذي ينتج عن جعل التاريخ معرفة تاريخية تأملية فارغة من كل الدوافع الحيوية سرعان ما يسبب في ضعف قوى الفرد ويجعله مريضا ومتعبا، وفي النهاية عاطلا عن كل رغبة أو شهوة، محولا إياه

---

[44]- Ibid. pp. 100-101 -146

[45]- Ibid. p. 101

[46]- نستعمل اللفظ ما فوق تاريخي في مقابل اللفظ التاريخي Supra- historique

[47]- Ibid. p. 102

[48]- Ibid. p. 100

[49]- Ibid. pp. 102-103

إلى رجل أقل خطرا، ولا يمكن لأفكاره المتشائمة إلا أن تصاغ في قوالب من الكلام والتأملات فيتحول بعدها إلى مفكر أو مبشر، فيستعمل خياله على تطوير معتقده الخرافي.[50]

يحدث هذا، عندما تغيب فكرة الصيرورة عن التاريخ، ويظل التشبث بالثبات والخلود سيد الموقف. ونجد هذا التعلق بالثبات عند أولئك الذين يقلبون الأمور، ويخلطون بينها جاعلين المتأخر مقدما، ومن أواخر الأمور أوائلَها. هنا يلتف نيتشه حول فلاسفة التاريخ الذين جعلوا للتاريخ مهمة خدمة الفلسفة متناسين أن للتاريخ مهمة أخرى غير هذه التي حددوها له. إنها مهمة إبراز علاقات القوى لتصبح تلك المعرفة التفاضلية* بين القوة والضعف، الارتقاء والانهيار.[51]

لكننا نجد المؤرخين الذين وقعوا ضحية التاريخ بمعناه الميتافيزيقي والديني كثيرا ما يقعون أيضا في الخلط وعدم القدرة على الاختيار، ذلك أنهم يأخذون على عاتقهم معرفة كل الأشياء دون المفاضلة بينها من حيث أهميتها وصلاحيتها. إنهم لا يفلتون أي شيء ولا يقصون أي عنصر، معتبرين هذا التكديس ميزة لهم وعلامة الإتقان والموضوعية.

يعتبر نيتشه هذا الزعم مجرد ديماغوجيا ونفاقا، يختبئ وراء الموضوعية ودقة الوقائع وثبات الماضي. فكل ما يفعله المؤرخ من خلال هذا الزعم، أنه يتوارى ممحيا شخصه باسم احترام الموضوعية، لكنه يفسح المجال للآخرين ليأخذوا الكلمة والمشعل. إنه يتحامل على نفسه ويقمع نوازعه ويتجنب ذوقه، ليفسح المجال لهندسة شمولية شمولا وهميا تكتسح موقعه.

تلعب الموضوعية إذن دورا سيئا في ميدان التاريخ، ذلك أنها تسهم في قمع الإرادة الذاتية والشخصية، فلا تجعله يصبح معرفة تفاضلية[52] كما سلف الذكر. فالموضوعية لدى المؤرخين، مجرد قلب لعلاقات الإرادة بالمعرفة. إنها الاعتقاد الضروري بالعناية والعلل والغائية (غائية التاريخ)[53]. ولعل علة داء وفساد العلوم التاريخية يكمن في هذه الموضوعية التي ترتكز إليها المعارف التاريخية الحديثة، وهي في نظر نيتشه مجرد قناع يخفي وراءه وعيا محايدا يهوى الحقيقة فقط. إنه وعي يريد أن يعرف كل الأشياء من غير أن يفاضل بينها من ناحية أهميتها، وهو كذلك يسعى لفهم كل الأمور من دون التفريق بينها من ناحية سموها كما يتقبل كل الأشياء من دون أن يفاضل بينها. فحسب المنظور النتشوي يعتبر كل ذلك مثلا زهدية تتهدد الذات العارفة

---

[50]- ميشيل فوكو، جينيالوجيا المعرفة، مرجع سابق، ص 71

[51]- نفسه، ص 79

[52]- يقصد بالمعرفة التفاضلية هنا أن التاريخ يتحول إلى نوع من المعرفة المنظورية، أي أن ينظر من زاوية بعينها قصد التقويم و الرضى أو عدم الرضى، و كذلك قصد تتبع آثار السم و الحصول على أحسن ترياق. انظر جينيالوجيا المعرفة، مرجع سابق، ص 79

[53]- نفسه، ص 81

قبل أي شيء آخر. من هذا المنظور يحدد نيتشه أن كثيرا من المعارف التاريخية تضر بالإنسان، ولما كانت الحياة في حاجة إليها من حيث أهمية التاريخ لها؛ فإن هذا يهم الكائن الحي من خلال ثلاث علاقات:[54]

1. في المستوى الذي يكون فيه فاعلا مركزا على هدف.
2. في المستوى الذي يحافظ فيه على الماضي و يقدره.
3. في المستوى الذي يكابد فيه و يكون في حاجة إلى الخلاص.

ترتبط هذه العلاقات الثلاث بثلاثة أشكال للتاريخ تسمح بالتمييز بين تاريخ أثري وتاريخ تقليداني وتاريخ نقدي. فكيف يحدد نيتشه منظوره لهذه الأشكال الثلاثة من التاريخ؟ وهل تخدم هذه الأشكال التاريخية الحياة أم تضر بها؟

ب- نقد الأنماط الثلاثة للتاريخ:

يأخذ نيتشه على المؤرخين استخدامهم التاريخ بالمعنى الأفلاطوني[55]، وذلك من خلال استعماله للأنماط الثلاثة المعهودة: التاريخ الأثري والتقليداني والنقدي. ولعل ما تشترك فيه هذه الأنماط التاريخية الثلاثة كونها تصدر عن النموذج الميتافيزيقي والأنثروبولوجي للذاكرة. هذا النموذج الذي يفهم من التاريخ جانبه السكوني وتراتبية لحظاته كما لو كان ذلك مجرد معطيات خالدة وحقائق مطلقة. فما هي المؤاخذات التي سيؤاخذها نيتشه على كل نمط من هذه الأنماط؟

ب-1 التاريخ الأثري:[56]

يقوم هذا النمط على فكرة التعريف بالماضي من خلال تقريبه من الحاضر وتعميمه والمطابقة بين عناصره المختلفة. إنه يشكل صورة أثرية للماضي فتكون نموذجا ونسخة مطابقة له،[57] وهو إذ يفعل ذلك فإنه يحفظ الذكريات المجيدة لأمة ما، إضافة إلى تخليد الأحداث العظيمة والانتصارات الباهرة وكذلك الاحتفالات الدينية.

---

[54]- Ibid. p. 103

[55]- نقصد هنا باستخدام التاريخ بالمعنى الأفلاطوني غياب الحس التاريخي لدى فلاسفة التاريخ، ذلك أن الكثير من هؤلاء يرون أن الأشياء و الأحداث و الوقائع ثابتة، و هذا الشكل الثابت هو ما يسعى نيتشه إلى محاربته باسم الصيرورة، إذ يعتبر كل شيء نتاجا لهذه الصيرورة و ليس ثمة ما هو خالد و لا حقائق مطلقة كما يزعم الموقف الميتافيزيقي الذي يمتد من أفلاطون إلى هيجل.

[56]- يقابل التاريخ الأثري اللفظ الفرنسي l`histoire mounumentale

[57]- Ibid.p. 106

يضفي هذا النوع من التاريخ مجدا، ويصور السلف على أنهم هويات بديلة، فيجعل بذلك كل الطموحات الأخرى تنام[58]. إنه التاريخ التقليدي الذي يضع على رقبته استعادة كل ما هو عظيم (شخصيات، أحداث...) في الماضي ليحفظه في الحاضر ويخلده.

من هذا المنطلق، يعتبره نيتشه أكبر عائق أمام تدفق الحياة الحاضرة، ويعيب عليه وقوفه حاجزا أمام تدفق الإبداع الحقيقي[59]. فليس التاريخ الأثري سوى استعادة للماضي ومحاولة الاحتفاظ به في الحاضر من خلال استقصاء معرفي تذكري للمعارف والأعمال والمنتجات الخوالي قصد الوقوف على تلك الماهيات الكامنة وراءها.

ب-2 التاريخ التقليداني[60]

يلعب الاستعمال الثاني للتاريخ بالمعنى التقليداني دورا كبيرا في حفظ الخلف لآثار السلف، ولهذا يعمل هذا النمط من التاريخ على ربط الاتصال الدائم بالماضي، جاعلا الحاضر بمثابة استمرار لما سبقه. إنه يجعل اللحظة منحلة وذلك بإقحام الماضي فيها[61]؛ كما أنه يرد الإنسان الفاعل مضطربا ومشوش الحركات. وبهذه الخاصية، يدعونا التاريخ التقليداني إلى أن نحفظ للخلف تلك الشروط التي ولدنا فيها ووجدنا أنفسنا عليها، وذلك بالحفاظ على ما وجدنا عليه من سبقونا.

بهذه الخاصية التي يتميز بها التاريخ التقليداني، فإن التاريخ يغدو مجرد تراث متصل بما يسبقه، بينما يكون الناس على ضوئه مشدودين إلى موطنهم الأصلي، وكذلك إلى جذورهم وهوياتهم الخالدة. غير أن عيب هذا النمط من التاريخ يكمن في كونه يجعل الماضي مقدسا ومبجلا، ويعيق إبداع الأفراد باسم الوفاء والإخلاص لهذا التاريخ، كما يسلبهم ناصية الفعل.[62]

ب-3 التاريخ النقدي[63]

يقصد به نيتشه الاستعمال المعرفي للتاريخ، وهو الاستعمال الذي يركن إليه النموذج التقليدي الذي يقحم الموضوعية في الدراسات التاريخية، باحثا عن الحياد المعرفي إدعاء منه البحث عن الحقيقة. ولعل الخطأ الذي يرتكب باسم هذا النوع من التاريخ، حسب نيتشه، هو تغييب الذات العارفة وقمع ميولاتها باسم الحياد المعرفي (الموضوعية).

---

[58]- Ibidem

[59]- Ibid.p.108

[60]- يقابل التاريخ التقليداني اللفظ الألماني Antiquarische Historie

[61]- Ibid. p. 112

[62]- Ibidem

[63]- في مقابل اللفظ الفرنسي L`histoire critique

إنه يفصل الأفراد عن منابعهم الحقيقية، ويضحي بحركة الحياة بدعوى الاهتمام بالحقيقة التي يزعم حاضرنا أنه يمتلكها.[64] وهكذا يصبح التاريخ بمعناه النقدي امتدادا للتقليد الذي دأب عليه المؤرخون، والذي يقضي بجعل التاريخ علما يحترم الموضوعية ويستطيع تقديم حقائق مزعومة.

إذن، تشترك هذه الأنماط الثلاثة لاستعمال التاريخ في كونها تصدر عن المنظور التقليدي للدراسات التاريخية. ذلك المنظور الذي يرى في المعارف التاريخية حقائق، تخلد وتعلم للأجيال اللاحقة. إنه المنظور نفسه الذي صدرت عنه تلك التصورات المثالية والدينية المسيحية البائسة للقرن التاسع عشر في أوربا، هذا القرن الذي يعتبر في اعتقاد نيتشه قرن الثقافة التاريخية بامتياز[65]، حيث ظهرت المناهج التاريخية، وأخذت تكتسح الثقافة وخاصة الوسط الأكاديمي منها.

بموجب هذه الطفرة المنهجية التي عرفتها الدراسات التاريخية، بدأت مقولة الموضوعية تسيطر على عقول النقاد والمؤرخين. وقد كان لهذه المقولة، كما ذكرنا دورا سلبيا في انحطاط الممارسة التاريخية، ومن هذا المنطلق يوجه نيتشه مجموعة من الاعتراضات والانتقادات لمقولة الموضوعية، باعتبارها شكلا من أشكال المفاهيم السلبية والنافية للإرادة الذاتية، وهي في رأيه المفهوم أو العنصر الارتكاسي الذي أفرغ التاريخ من مضمونه الحقيقي، ليلحق بالمعارف الضارة للحياة والأفراد. إذن فما هي أهم الانتقادات والاعتراضات التي واجه بها نيتشه مسألة الموضوعية في الدراسات التاريخية؟

ج- نقد الموضوعية:

اكتسب التاريخ كعلم إنساني اعتزازه بذاته من خلال مزاعم ممارسيه (المؤرخون) بامتلاكهم لمقولة الموضوعية. وقد تسربت هذه المقولة إلى الأبحاث التاريخية كغيرها من المعارف الإنسانية التي كانت تبحث عن مشروعيتها المعرفية وصلاحيتها الابستمولوجية في القرن التاسع عشر الميلادي. وكانت الخلفيات الموجهة لإقحام الموضوعية في علم التاريخ تسعى إلى جعله نموذجا للعلوم الإنسانية بجوار العلوم الاجتماعية الأخرى. غير أن رأي نيتشه يتجاوز مجرد الاعتبارات المعرفية والابستيمولوجية، إذ سيحاول تقويض الأساس الفلسفي والميتافيزيقي الموجه لمثل هذا الطموح الزائف الذي أصبح مرضا يتنقل بين المعارف والعلوم في الثقافة الحديثة.

---

[64]- مشيل فوكو. جينيالوجيا المعرفة، مرجع سابق، ص 83

[65]- Ibid.p. 116

لقد انتبه نيتشه إلى تلك المحاولات الرامية إلى الطعن في الفلسفة[66] من خلال اكتساح المعارف الحديثة لمكانتها السابقة، غير أنه لن يقف عند هذا الحد، ذلك أن هدفه أكبر من مجرد إعادة الاعتبار للفلسفة، بل إنه يتجاوز ذلك كله إلى إعادة الاعتبار للثقافة بالمعنى الذي يتصوره. من هذا المنطلق يعتبر نيتشه أن الموضوعية التي يتشدق بها المعاصرون، إنما تجد منبعها في تلك الحاجة الكبيرة والتعطش الكبير إلى العدالة[67]. فإذا كان الإنسان المعاصر يعتبر الموضوعية التاريخية نقطة قوته[68]، فإن السؤال الذي سيطرح عليه هو: إلى أي حد ستسمح له هذه الموضوعية المزعومة أن يكون قويا وعادلا، بل وأكثر عدالة من إنسان العصور السابقة؟

حسب نيتشه ليس هناك من يستحق منا إطلاقا الاحترام، سوى ذلك الذي يملك غريزة القوة والعدالة والقدرة على أن يصبح عادلا؛ فالفضائل العليا والنادرة تتوحد وتختبئ في العدالة، مثل محيط كبير يشكل مصبا للأنهار الآتية من كل مكان. إن ما يهم نيتشه هو العدالة وليس الحقيقة؛ فالعالم اليوم، في رأيه، مليء بخدام وعمال الحقيقة، لكن تظل فضيلة العدالة نادرة الوجود، ونادرا ما يتم التعرف عليها[69]. غير أنه إذا تم تمحيص قرارات هؤلاء العمال، فإننا سنتوصل إلى أنه في حقيقة الأمر قليل من بين هؤلاء من يخدم الحقيقة، ذلك أن أغلبيتهم تعوزهم إرادة العدالة. وعندما يتم الحديث معهم حول الحقيقة والعدالة، تجدهم مترددين وحائرين، مستفسرين حول ما إذا كان القاضي هو الذي يتحدث إليهم. إن هؤلاء (عمال الحقيقة) لا يملكون لا إرادة ولا قوة الحكم، فهم يظلون مشدودين إلى الحديث عن المعرفة الخالصة بعيدا عن الأسباب، أو بعبارة أكثر وضوحا، عن الحقيقة التي لا تصلح لأي شيء.[70]

ينطبق هذا الحال على ما يقوم به أولئك المؤرخون الصارمون والمستقيمون، لكنهم قصيرو النظر، حيث نجد لديهم إرادة أن يصبحوا عادلين ليست سوى أقل من الصبر الملازم لممارسة العدالة، غير أن كل أحكامهم تصبح خاطئة تقريبا بنفس السبب الذي كانت به أحكام لجان التحكيم التقليدية خاطئة.[71]

إن هؤلاء المؤرخين العفويين وأمثالهم يسمون الموضوعية قياس الآراء والأحداث الماضية بالآراء الحالية للحظات الحاضر، فيجدون في ذلك قانونا يسحبونه على كل الحقائق. إن عملهم هذا ينحصر في مجرد

---

[66]- انظر بهذا الخصوص كتاب نيتشه: ما وراء الخير والشر، الفقرة 203، ترجمة حسان بورقية، عن افريقا الشرق، ط2006، حيث يشير إلى أن تحامل العلماء على الفلسفة ربما كان نتيجة ".. بؤس الفلسفة الحديثة ذاتها بإيجاز، وهو في الغالب الأعم ما قوض الاحترام اللائق بالفلسفة وفتح الأبواب للرعاع للتهجم عليها". ص 111و 112

[67]- لا ينبغي أن يفهم من مفهوم العدالة عند نيتشه البعد الأخلاقي والميتافيزيقي المعهود فيها، بل إنما يقصد بها المعنى الطبيعي الذي يسمح للقوى الحيوية الفاعلة أن تعمل وتأخذ مكانتها. إن العدالة هنا هي عدالة الطبيعة والغريزة والقوة، وليس عدالة الخير والشر الأخلاقيين كما في التراث الديني الأفلاطوني

[68]- Ibid. p. 127

[69]- Ibid. p. 128

[70]- Ibid. p. 129

[71]- Ibid. p. 130

ملاءمة الماضي لابتدالية الحاضر. وعلى خلاف ذلك يسمون الذاتية كل استوغرافيا لا تقبل قانونية الآراء المتداولة.[72]

إن التفكير في التاريخ عن طريق الموضوعية، يعتبر بمثابة العمل السري للمسرحي، الذي يجمع الأشياء بواسطة الفكر، فيرجع كل حدث معزول إلى المجموع، بموجب المبدإ الذي يستوجب إقحام وحدة التصميم في الأشياء التي لم تخضع له بعد، وانطلاقا من هذا الفعل ينشر الإنسان غسيله فوق الماضي فيجعله سيدا عليه.[73]

وفق هذا المنظور، يضع نيتشه الموضوعية في مقابل روح العدالة، ويعتبرهما شيئين جد مختلفين. ولهذا فقد نتخيل استوغرافيا لا تتوفر على حد أدنى من الحقيقة التجريبية المشتركة، ولكنها مع ذلك تتوفر على درجة عليا من الموضوعية[74]. قد يكون هذا مفارقا بالنسبة لمن يناصر مقولة الموضوعية في التاريخ، غير أن ما لم يعد ممكنا التسليم به لهؤلاء، هو إقحامهم للمنظور الوضعي في التاريخ، آخذين بالاعتبارات التجريبية البالية، دونما الانتباه للجوانب الأخرى التي قد تكون أكثر أهمية من الأولى، كالجانب الفني والإبداعي مثلا.

إنه لم يعد بالإمكان أن يصبح المرء مؤرخا كبيرا وفنانا، وفي الوقت نفسه قاصر النظر. هذا الوضع لم يعد يحتمل حسب نيتشه؛ فهؤلاء العلماء الكبار هم عقول قاصرة النظر رغم كل ذلك، وهذا ما نراه يجتمع ويلتقي فيهم. إن رجل التجربة هو الوحيد الذي يقدر على كتابة التاريخ. أما الذي لم ينجز قط أية تجارب كبيرة ولا عظيمة كباقي الناس الآخرين، فلن يقرأ أبدا ذلك الكبر وتلك العظمة الموجودين في التاريخ.[75]

ليست إذن، الموضوعية ما يجعل الدراسات التاريخية ذات شأن وبال، بل القدرة على مصارعة المستقبل، فالذي يصارع المستقبل وحده من يملك الحق في محاكمة الماضي.[76] ذلك أن هذا المستقبل هو الذي سيقدم ويمنح لنا أن نتأمل ونكتشف، لكن دونما أن نلجأ إلى الماضي، لنطالبه بأن يمنحنا الوسائل والأدوات الضرورية لتحقيق ما نريد.

إن الموضوعية ليست سوى مرض ألم بالعلم الحديث، فأوقعه في الفراش ينتظر من يعالجه؛ وإذا كان هناك من دواء لهذا المرض، فإنه لن يمر إلا على يد التاريخ الذي يتصوره نيتشه، هذه المرة، مخالفا للتقليد الأفلاطوني والديني والوضعي. إنه التاريخ بالمعنى الجينالوجي، ذلك الذي ستكون له مهمة أخرى مخالفة لما

---

[72]- Ibidem.
[73]- Ibid. p. 131
[74]- ibidem.
[75]- Ibid. p. 135
[76]- ibidem.

عهد سابقا في التقليد الميتافيزيقي، هو تاريخ لا يخدم الفلسفة ولا المعرفة والحقيقة؛ بل إنه يتعدى كل ذلك، ليصبح الدواء والعلاج للأمراض الثقافية المنتشرة في الحضارة الحديثة.

من هذا المنطلق، سوف يعمل نيتشه على جعل التاريخ استراتيجيه شاملة لتشريح أمراض الثقافة الحديثة، متجاوزا بذلك كل من سبقوه. وقد رأينا في "اعتبارات في غير أوانها" كيف أخذ على التاريخ كونه أسير المنظور التقليدي الذي دفع به إلى العدمية، وجعله في خدمة قوى الارتكاس، بدل القوى الفاعلة. وإذا كان نيتشه قد حاول فضح مرتكزات هذا المنظور وانتقاده وتقويضه؛ فإنه سيعمل أكثر فيما سيأتي من أعماله، على تحديد المهمة الجديدة للتاريخ، وهي المهمة التي ستسم مشروعه في نقد الأخلاق في "جينيالوجيا الأخلاق".

في القسم التالي، سوف نعمل على إبراز خصائص هذا المنظور الجديد للتاريخ، والذي يقترحه نيتشه ويأخذ به في نقده للمعرفة والثقافة بشكل عام. فما هي إذن، خصائص هذا المنظور الجديد؟

القسم الثاني: منظور نتشيه للتاريخ

لقد رأينا كيف انتقد نيتشه التاريخ الميتافيزيقي، رافضا سعيه إلى اختزال التنوع الزمني، مشنعا عليه رده لهذا التنوع إلى كلية مغلقة، إذ لا يتوانى عن السعي وراء إقحام وجهة نظر في التاريخ تتعدى التاريخ نفسه. إنه تاريخ المؤرخين وعلماء الدين والفلاسفة، هؤلاء الذين يتخذون من نقطة خارج التاريخ منطلقا لهم، فيقحمون فيه من تصورات قبلية ومثالية ولاهوتية لا قبل له بها.[77]

رأينا كذلك قصور منطلق هؤلاء، عندما يجعلون الموضوعية معيار الحكم على الأشياء والأحداث والوقائع، إيمانا منهم بوجود حقائق ومعارف يقينية وعبر، يمكن استخلاصها من التاريخ. كل ذلك كان موجها بإرادة سمتها الأساسية، حسب نيتشه، هي أنها صادرة عن قوى عدمية جعلت التاريخ ينحط ويضر بالحياة والثقافة.

بتجاوز هذا الوضع الذي آل إليه التاريخ، قدم نيتشه بديله الفلسفي للممارسة التاريخية بما هي ممارسة مختلفة جذريا عن سابقتها، وينعت هذا البديل بالحس التاريخي الذي سيجعل منه فيما بعد بحثا جينيالوجيا يوزع ويشتت ليدع الفوارق والهوامش تعمل عملها في تاريخ الثقافة.

فما هي خصائص هذا الحس التاريخي؟ وكيف سيحوله نيتشه إلى بحث جينيالوجي؟

[77]- بصدد هذه الفكرة تتحدث كاترين كوليو-تلين في كتابها "ماكس فيبر والتاريخ" في الفصل الأول عن فكرة التاريخ في القرن 19م، مشيرة إلى الصراع القائم بين المثالية الهيجيلية والنزعة التطورية التي يمثل خطها ليوبولد فون رانكه، حيث تسعى النزعة الأولى إلى إضفاء طابع لاهوتي على التاريخ، بينما تسعى الثانية إلى إقرار أن "على التاريخ أن يرفض استباق المعنى الكلي لمستقبل الإنسانية، وعليه بكل تواضع أن يبقى متمسكا بموضوعه". ص 14، عن الترجمة العربية لجورج كثورة، دار المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط الأولى. سنة 1994م

1- الحس التاريخي[78]

يعتبر الحس التاريخي في عرف نيتشه نوعا من المعرفة التاريخية التي لا ترتكز على ثوابت مطلقة، ولا على مبادئ قبلية أو متعالية، بل إنه نوع من "الفيزيولوجيا" التي تقوم بتشريح التاريخ: تاريخ الأخلاق والعواطف والقيم والثقافة بشكل عام؛ فهو إذ يفعل ذلك ويسمح به، يصبح هذه النظرة المفتتة والقادرة على تفتيت نفسها ومحو الذات المزعومة[79].

إنه التعبير الأسمى عن الصيرورة، وجعل ما هو خالد يفنى وما هو واحد يوزع، فاسحا المجال للتنوع والاختلاف لكي تظهر التحولات الفارقة في تاريخ الأشياء، حيث يمكن رصدها ورصد لحظات قوتها وضعفها وتعين الفترات المتقلبة لهيمنتها من أجل إدراك أصلها وطريقة تشكلها وتكونها البطيء ومجمل الحركات التي تقضي فيها على ذاتها.

لقد طبق نيتشه هذا النوع من التاريخ في أعماله التي أتت بعد "اعتبارات في غير أوانها"، خاصة "جينيالوجيا الأخلاق" وفي "ما وراء الخير والشر"، حيث سينتهي في الفصل الخامس[80] منه إلى قول بصدد مسألة التاريخ مصرحا: "...يجب أن يربى الإنسان على الشعور بأن مستقبل الإنسانية يكمن في إرادته، وأن هذا المستقبل يتوقف على إرادة بشرية، يلزم أن تهيأ عمليات كبرى وتجارب تأديب وانتقاء كبرى إذا أراد الإنسان أن يضع حدا لسيطرة العبث والعشوائية المريعة هاته، التي حملت حتى الآن اسم "التاريخ"- وصيغة "أكبر عدد من الناس" العبثية، ليست سوى شكل من أشكاله الأخيرة".

إن ما يميز الحس التاريخي لدى هذا الفيلسوف، كونه يبرر الحدث التاريخي في تفرده ووحدته، غير أن الحدث هنا لا يعني به قرارا أو معاهدة أو حكم دولة أو معركة، بل يقصد به علاقة قوى تنقلب أو سلطة تنتزع، أو لغة تتبنى وتستعمل ضد أصحابها، وقد تكون هيمنة تضعف وتتآكل مفسحة المجال لشكل آخر من الهيمنة يظهر في شكل مقنع.

لا يجعل الحس التاريخي القوى المتحكمة في التاريخ تسعى نحو هدف بعينه، كما لا يجعلها تخضع لعلاقات آلية، بل لصدف الصراع.[81] ولهذا لا يدع هذا الحس هذه القوى تتجلى كأشكال متعاقبة لهدف أسمى أو لتظهر كنتيجة لأسباب بعينها، وإنما يجعلها تتجلى في تفرد الحدث، ليصبح ملكة التخيل لتراتبية القيم التي

---

[78]- تدين الفلسفة المعاصرة في بعض تياراتها بدين لنيتشه بخصوص وضعه لهذا المفهوم النقدي في الدراسات التاريخية، وقد أشاد غادامير مثلا في أكثر من كتاب بهذا المفهوم، نذكر منها: كتابه "بداية الفلسفة" وكتابه حول "فلسفة التأويل".

[79]- lectures de Nietzsche, par M. Foucault et autres, op.cit, p. 116

[80]- في هذا الفصل الخامس من "ما وراء الخير والشر" يقوم نيتشه بتأويل الأخلاق تأويلا طبيعيا، ولهذا عنونه بـ"مساهمة في تاريخ طبيعي للأخلاق" وفي الفصل التاسع، من نفس الكتاب، انصرف إلى إبراز الأصل الجينالوجي لمفهوم "الخير" و"الشر" رادا إياها إلى أصلهما الفئوي من خلال تقص تاريخي: العبد/السيد، النبيل/الحقير، مرجع مذكور، صفحات من 176إلى 182، من الترجمة العربية.

[81]- lectures de Nietzsche, par M. Foucault et autres, op.cit, p. 118

بحسبها عاش شعب ومجتمع أو إنسان ما "غريزة كشف" العلاقات الموجودة بين مختلف التقويمات والعلاقة بين هذه القيم وسلطة القوى الحية.[82]

يكشف نيتشه بهذا الصدد في الفقرة 222 من "ما وراء الخير والشر" مدى حاجة الإنسان الأوربي الحديث إلى لباس تنكر مادام التاريخ بالنسبة إليه مجرد خزانة مليئة ببدلات متنوعة، فعبثا، يقول نيتشه: «... نحاول -أخلاقيا وفنيا- التباهي بالبدلة الرومانسية أو الكلاسيكية أو المسيحية أو الفلورنسية أو الباروكية أو الوطنية؛ ولا شيء يكسونا أبدا. غير أن "الحس" و"الحس التاريخي" تحديدا، يعثر على ضالته في هذا اليأس نفسه... ذلك أنه يسمح بأن يجرب المرء بدلات أخرى مختلفة ومتنوعة...فنحن لا نكف نجرب العتيقة أو الدخيلة، نقيسها، ننزعها نعيدها إلى علبها ونتفحصها على الخصوص، فنحن أول قرن خبير في مادة البدلات: "أعني في مادة الأخلاقيات وأصناف الإيمان والأذواق الجمالية و المعتقدات ».[83]

هذه إذن، هي اللعبة الجديدة التي ينبغي أن تقدرها الثقافة الجديدة حق قدرها، ثقافة "الحس التاريخي" التي تعوز الكثير من الفلاسفة[84] الذين بقوا بلا حس وبلا شيء إنساني بالمعنى الذي يمجده نيتشه. لقد أصبح عصر هؤلاء يفتقد بشكل ملحوظ مثل نبوغ هيراقليطس وأمباذوقليس وأفلاطون؛ فغياب مثل هذا الحس لدى هؤلاء جعلهم مجرد ممثلين، وهم بهذا الوصف أصبح منظرهم يبعث الريبة في نفوس الشباب الطموحين. إنهم بتعبير نيتشه الساخر « في أحسن الأحوال علماء اختصاصيون...وهم جميعا مغلوبون تم إدخالهم في طاعة العلم...وهم الآن نزهاء وطافحون بالغيظ الكامن والضغينة، وبكلماتهم وأفعالهم يبينون أنهم لا يؤمنون لا بالمهمة السامية للفلسفة ولا بسموها ».[85] فإذن، ما هي هذه المهمة السامية للفلسفة، والتي لم يقم بها هؤلاء الفلاسفة الذين انتقدهم؟

إنها مهمة تأويل التاريخ نفسه من حيث هو مسرح علاقات القوة والضعف، تاريخ الأخلاق والقيم والعادات والمثل والمفاهيم الميتافيزيقية، تاريخ مفاهيم الحرية والزهد، الشر والخير، الوهم والحقيقة... فهذه المهمة التأويلية هي التي ستكشف عن المصدر والنسب « Hurkunft »الانحدار القديم من زمرة أو عرق أو طائفة أو فئة وضيعة أو فئة رفيعة. كذلك تكشف عن هذا الانبجاس « Entestbung » الذي يسمح بدوره بفهم التغيرات الفردية والصيرورات الجماعية التي تبرز على ضوئها كل القوى « Forces » إلى السطح سواء كانت فعلية « Actives » أو ارتكاسية « Réactives » ، وهي مجرد ردود أفعال ولحظات ضعف

[82]- ما وراء الخير والشر، مرجع مذكور، ص 109

[83]- المرجع نفسه، ص 134

[84]- في هذه النقطة تحديدا يتهم نيتشه الفلاسفة الألمان مشيرا إلى أثر شوبنهاور على ألمانيا الحديثة " ...الذي وصل بغيظه الأهوج من هيغل إلى قطع كل الصلات بين الشباب الألمان والثقافة الألمانية التي إن قدرت حق قدرها، كانت رغم ذلك ذروة للحس التاريخي..."، ما وراء الخير والشر، مرجع سابق، ص 112

[85]- المرجع نفسه، ص 113

وانحطاط. إن هذه المهمة الجديدة الموكولة للفلسفة، هي ما سوف يسميه نيتشه " الجينيالوجيا"[86] أو في بعض الأحيان "الروح التاريخية"، كما رأينا سابقا. فبأي معنى يحدد نيتشه التاريخ كجينيالوجيا؟ وكيف تصبح هذه الجينيالوجيا مهمة الفلسفة التي يدعو إليها؟

2- التاريخ باعتباره جينيالوجيا

إذا كان تاريخ المؤرخين يدعي أنه معرفة بالماضي، فزعم أنه بإمكانه الحكم على الأشياء بالموضوعية، فلأنه يفترض مسبقا وجود حقائق خالدة يمكن إثباتها أو الوصول إليها بموضوعية. أما بخصوص التاريخ بوصفه ممارسة جينيالوجية كما يطرح نيتشه، فإنه على خلاف ذلك كله، لا يفسح المجال للأفكار التي تتجاوز التاريخ نفسه، بل إنه يستند إلى الحس التاريخي فيصبح "جينيالوجيا"؛ أي علم نسب أو علم كشف أو وصول القيم والعلاقات والأحكام وكل التقويمات الثقافية والأخلاقية، رادا إياها إلى بدايات تشكلاتها، كاشفا بعد ذلك الفوارق والاختلافات بينها. إنه عبارة عن نظرة نقدية وحادة تقوم بالتمييز والتوزيع والتفتيت، لتدع الفوارق تظهر والهوامش تعبر عن ذاتها كما هي.[87]

من هذا المنطلق، تعتبر "الجينيالوجيا" الأخلاق والعواطف والأحاسيس والقيم كلها لها تاريخ يجب كشفه وفضح تحولاتها ورصد لحظات قوتها وضعفها، بالإضافة إلى تحديد الفترات التي تقبلت فيها وتغيرت معالمها، وذلك لإدراك تكوينها الحديث ومجمل الحركات التي تقضي فيها على نفسها[88]. وبهذه الخاصية المميزة التي تنفرد بها ال"جينيالوجيا"، فإنها تتحدد في الاتجاه المعاكس للتاريخ الذي دأب المؤرخون على ممارسته. فهي مثلا حسب ما يحدده لها نيتشه لا تستند إلى المطلق والثبات، إذ لا تعتبر الإنسان مطلقا أو ثابتا، سواء في عواطفه أو أخلاقيه أو حتى في جسده[89]؛ بل على خلاف ذلك، تعمد الجينيالوجيا إلى تحطيم الصورة المألوفة والنمطية عن وجود الإنسان التي ورثتها الإنسانية الحديثة عن التقليد الفلسفي الأفلاطوني والديني، ضاربا صفحا عنه، مستبدلا إياه بإقحام الانفصال والتنوع فيه.

لقد عمل نيتشه، وفق هذا المنظور الجديد للتاريخ، على توظيف الجينيالوجيا لدراسة وتتبع مجمل تاريخ تكون الأخلاق والقيم لدى الإنسان منذ غابر الأزمان؛ فاستخلص من ذلك أن للخير والشر تاريخا في روح

[86]- تقترن "الجينيالوجيا" عند نيتشه باستراتيجية شاملة للنقد: نقد المعرفة والتاريخ والثقافة والأخلاق والحقيقة، إنها نوع من دراسة "الأصل" واتباع المسار التاريخي لنشوء وتكون المفاهيم والعواطف والأحاسيس والقيم والأخلاق، وهي لا تبحث كل هذه الأشياء من أجل الوقوف على الماهيات والحقائق، بل على خلاف ذلك، تسعى إلى النقد والخلخلة والتقويض. إنها أداة التفلسف بهذا المعنى، أي بالمطرقة كما يصرح بذلك نيتشه نفسه.

[87]- Lectures de Nietzsche, par M. Foucault et autres, op.cit, p. 116

[88]- Ibid. p. 117

[89]- كثيرا ما وصف نيتشه ممارسته أو منظوره للإنسان بكونه سيكولوجيا وفيزيولوجيا وحتى طبيا، إذ يربط بين أفكار الإنسان وعواطفه وتمثلاته وحتى تاريخه، بجسده وأحاسيسه وحتى نمط تغذيته. وقد نعت هذا المنظور من طرف "ديدي ريمون" بالتقييم الطبي، حيث تصبح الفلسفة مع نيتشه ممارسة طبية تشريحية، انظر بهذا الخصوص المقالة المترجمة لـ"ديدي ريمون" تحت عنوان "التداوي بالفلسفة- وصفة نيتشه الطبية"، ترجمة عز الدين الخطابي في "الفلسفة السياسية والأخلاقية" منشورات عالم التربية، ط1.سنة 2004، ص 147

الأعراق والفئات المسيطرة؛ ذلك أن الخير يعود في أصله إلى طبقة النبلاء الخيرين الذين يحوزون الإحساس بالتضامن، لأن أفراد جماعتهم يرتبطون فيما بينهم بروح الثأر؛ بينما الشر يعود في أصل تكوينه إلى طبقة الأشرار الذين وصفوا كذلك لكونهم عاجزين ولا يعرفون للتضامن من طريق. وهكذا يكون لفظ الخير والشر انطلاقا من انقسام الناس إلى فئتين مختلفتين: العبيد والسادة، النبيل والحقير.[90]

أفضت دراسة نيتشه للأخلاق وبحثه عن أصلها إلى تحديد نظرة جديدة للتاريخ، مخالفة للمنظور الميتافيزيقي المعروف، ذلك أنه لما عاد إلى أصول القيم والأحاسيس الأخلاقية المتوارثة عن الأسلاف، بدا له أنه لم يعد من الممكن أن نتحدث بعد الآن عن "التاريخ الكوني" كما زعم هيغل، بل ينبغي الانصراف إلى كشف تلك التأويلات التي تكون الجينيالوجيا تاريخا لها.[91]

لهذا أصبحت الجينيالوجيا نوعا من تاريخ النماذج والتصورات الأخلاقية[92] والميتافيزيقية، قصد تفكيكها وتقويضها، ويندرج تحت هذا النموذج تاريخ مفهوم الحقيقة والخير والشر والمثل الزهدية...، من هنا اقتضى البحث الجينيالوجي بما هو تأريخ وتأويل في آن واحد، القيام بنوع من المفاضلة، وتقديم الأولوية لمعنى على آخر، حسب القوى المتحكمة فيها وإرادة القوة وكل السلطات التي تتوارى خلف كل معنى. من هذا المنطلق أصبحت الجينيالوجيا تاريخا تفاضليا ومعرفة منظورية، تتجاوز المنظور التقدمي والشمولي الكوني الذي حبست فيه التاريخ من ذي قبل، وأمست تستدعي اللغة السيكولوجيا والفيزيولوجيا قصد التأويل، متجاوزة المنظور المعرفي والتأملي الخالص الذي دأب عليه التقليد الفلسفي الكلاسيكي.

لقد أحدث نيتشه تغييرا جذريا في تصورنا للتاريخ، فنقله من مجرد علم يسعى بلا جدوى إلى تحقيق ذاته وسط ركام من المعارف الأخرى التي تتخبط في نفس المشاكل التي كانت تواجه عموم العلوم الإنسانية في القرن التاسع عشر، إلى ممارسة جديدة كل الجدة، سواء على مستوى المنهجية أو التصور. لهذا وضع نيتشه منظورا للتاريخ يتنافر ويتناقض مع كل التصورات الجامدة والقبلية له. فالممارسة التاريخية بما هي جينيالوجيا لا تتوافق مع الوقائع الجامدة، بل تسعد وتكون فعالة أكثر حينما يتعلق الأمر بالتعدد والاختلاف؛ وهذا ما يفسر رفض الخطاب التاريخي النتشوي لكل ما يتصل بالفكر الماهوي والمثالي.

[90]- ما وراء الخير والشر، مرجع مذكور، الصفحات 178،179،180

[91]- Dorian Astor, Friedrich Nietzsche: dossier et notes, in folio plus philosophie, Gallimard, 2006, pp. 117- 118

[92]- F.Nietzshe, généalogie de la morale, op.cit. p. 10-11-12

وجد هذا المنظور الجديد للتاريخ بما هو استراتيجية للتأويل، تحققه أثناء تناول نيتشه لتاريخ الأخلاق. وهكذا نجده في كتابه "ما وراء الخير والشر" يتعرض لهذه المسألة من خلال منظور جديد، يميز فيه بين ثلاث مراحل في تطور الأخلاق: مرحلة ما قبل الأخلاق، مرحلة الأخلاق، مرحلة ما بعد الأخلاق.[93]

أما بخصوص مرحلة ما قبل الأخلاق، فيعتبرها نيتشه أطول مرحلة تاريخية عرفتها البشرية، حيث تم فيها استنباط قيمة الفعل من نتائجه التي ترتبت عنه، وليس من الفعل ذاته. فقد كان الفعل في هذه المرحلة لا يهم في حد ذاته، إذ كانت فضيلة النجاح أو الفشل هي التي تحرض على الحكم على فعل معين، خيرا أو شرا. كما أنه لم تظهر بعد صيغة الأمر الأخلاقي: "اعرف نفسك". لكن المسار الطويل لهذا الأخير في التاريخ، خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة أفضى به تدريجيا خطوة بخطوة، وفي عدة مناطق من الأرض إلى إضفاء قيمة ما ليس على نتائج الفعل، بل على نسبه (أصله)، لهذا حدث تحول تاريخي إلى مرحلة جديدة.[94]

هذه المرحلة الجديدة هي ما يطلق عليها نيتشه المرحلة الأخلاقية، وفيها تم تهذيب النظر إلى الأشياء قصد الحكم عليها، فكانت تلك خطوة باتجاه معرفة الذات. غير أنه عوض أن يتم النظر في النتائج، تم البحث عن الأصل، وهذا ما شكل قلبا للمنظور ليصبح أثر الإيمان بـ"أصول" علامة تميزها.[95]

لقد تحكم في هذه المرحلة ضيق في التأويل، حيث دفع الناس إلى أن يحملوا، أصل الفعل على نية معينة (تفسير الفعل بالنسبة). فأجمع الكل على أن قيمة فعل ما تكمن في قصديته، ومن هنا شكلت قصدية الفعل لنفسها وحدها أصل الفعل. وبعد هذه المرحلة، يدعو نيتشه إلى مرحلة جديدة، مرحلة يصفها بكونها خارج الأخلاق. فما هي خصائص هذه المرحلة الجديدة؟

تتحدد المرحلة الثالثة، حسب نيتشه، بكونها تعرف قلبا جذريا للقيم، بحكم الارتداد الجديد على الذات وتعميق المنظور المخالف للإنسان؛ فعلى ضوء هذه المرحلة، إذن، يبدأ الشك يطال كل القيم، ويتم اعتبار القيمة الحاسمة لفعل ما، إنما تكمن في ما ليس له من قصدية، وأن كل ما فيه من قصدية ووعي هو بالأحرى قشور وسطحيات.[96] من هذا المنظور المخالف، سيتم اعتبار "النية" مجرد علامة وأمارة على الحاجة الملحة إلى التأويل، ذلك أن القصد أو النية مجرد علامات محملة بدلالات عديدة، وليس بدلالة واحدة.

---

[93]- ما وراء الخير و الشر، مرجع سابق، ص 45

[94]- نفسه، ص 45

[95]- نفسه، ص 45

[96]- نفسه، ص 46

إن هذا التشخيص التاريخي للمراحل الأخلاقية التي مرت منها أحكامنا التقويمية، يجسد بالفعل اهتمام نيتشه بالنظرة التاريخية الثاقبة للظواهر الأخلاقية[97]. غير أن المعنى الذي يستخدم به هنا هذا الأخير التاريخ، يجعله يكشف عن كل ما تخفيه هذه الظواهر الأخلاقية من قوى وتقديرات سطحية؛ وهذا ما يفسر لنا أن التاريخ بالمعنى الجينيالوجي كبحث عن أصل الظواهر هو نوع من العودة إلى الوراء لإلقاء نظرة تاريخية ساخرة على تلك الظواهر، وكشف ما تخفيه من علاقات وتقويمات وقوى قصد رصد تحولاتها وكل الحيل وأشكال التنكر التي شوهت تكونها عبر مراحل التاريخ.

إنها عودة إلى الأصل، لكن بواسطة الحس التاريخي؛ أي بإصغاء لا يكتفي بالبحث عن الماهية والأصل فقط، بل كذلك بجميع التفاصيل الظاهرة أو الخفية، تماما مثلما يفعل الطبيب عند تشخيصه لمرض معين. إن هذا المنظور لا يهمل مراحل التاريخ، كما لا يقفز على مراحل دون الأخرى، بل أكثر من ذلك، فهو ينزل إلى أعمق الأعماق ليصعد من جديد وليس ليبقى هنالك.

قدم نيتشه فيما بعد وفي كتابه "جينيالوجيا الأخلاق" تقسيما آخر للتاريخ، معتمدا هذا المنظور الجديد بما يسمح له بتأويل المراحل التاريخية التي مرت منها الثقافة والأخلاق منذ بداية تكونها دون أن يعني هذا التقسيم تحقيبا للتاريخ كما يفعل التقليد القديم[98]. فما هي خصائص هذه المراحل التاريخية الجديدة؟

3- المراحل التاريخية للأخلاق

أ- مرحلة ما قبل التاريخ:

يستعمل نيتشه عبارة "المرحلة البدائية" أو "ما قبل التاريخ"[99]، فيدرك منها شيئا مخالفا للتاريخ الكوني، إنه يفهم منها عمل "أخلاقية العادات" « La moralité des mœurs » الذي يسبق هذا الأخير؛ فهو يعتبر كل هذه العصور اللا محدودة لأخلاقية العادات سابقة للتاريخ الشامل، مشكلة في الواقع التاريخ الرئيس والفاصل الذي يحدد بشكل نهائي سمت الإنسانية.

يشكل هذا النوع "ما قبل تاريخ الإنساني"، إنه العمل الذي يهم تعيين وتحديد الكائن البشري كما هو (أي ترويضه). وقد شكل هذا الفعل الترويضي مهمة الثقافة، لهذا استحق أن يصبح الاشتغال على فعل الإنسان

97- F.Nietzshe, généalogie de la morale, op.cit. p. 14

98- Ibid, p. 59

99- Ibid, p. 61

من هذا المنطلق موضوع الجينيالوجيا بامتياز، فمثلا تعتبر علاقة: الدين/المدين حسب نيتشه، أقدم العلاقات البدائية السائدة بين الأفراد، والشكل الأكثر بدائية للحق الشخصي.[100]

يعتبر نيتشه الدين النموذج الأصلي لأي تنظيم جاء فيما بعد، حيث تظهر فيه العلاقة المختلفة وغير المتوازنة. وقد كانت الفعالية الثقافية في هذه المرحلة قوية وفعالة، بما هي حركة ترويض عنيف للكائن النوعي، عن طريق طاعة القوانين إلى أن تمكن من التصرف باستخدام قواه الارتكاسية.[101]

مارس النشاط الثقافي إذن، بما هو فعل قبل تاريخي، فعله على القوى الارتكاسية، فزودها بالمثل والعادات، حتى أصبحت قادرة على أن تكون مفعولا بها[102]. ولهذا يكتسب الكائن البشري وعيه في هذه المرحلة انطلاقا من التحريض والإكراهات الثقافية. وبما أن هذا الوعي يستند في بدايته إلى ملكة النسيان التي تكسبه تماسكه وصلابته؛ فإن الثقافة تكسبه ملكة جديدة تعارض النسيان. إنها الذاكرة، لكن هذه الأخيرة ليست ذاكرة الآثار المرتبطة بالماضي، ولا ذاكرة الحساسية، بل يتعلق الأمر في هذه المرحلة بذاكرة أصيلة ترتبط بالمستقبل، إنها ذاكرة الإرادة بالأساس، وهي ملكة قطع الوعد وإلزام المستقبل. إنها ذكرى هذا المستقبل ذاته.[103]

أصبح موضوع الثقافة الانتقائي إذن، هو تكوين إنسان قادر على الوعد والتصرف بالمستقبل، إنسان حر وقادر، هو ذا الإنسان الفاعل الذي يفعل بردود فعله. لذلك، ليس هنالك ما يرهب ويسبب القلق في ما قبل التاريخ أكثر من تقوية ذاكرة الإنسان، لأن ذلك لم يكن ليتم من دون تعذيب وتضحيات دموية. لهذا خرج الإنسان من هذه المرحلة بنتيجة تؤكد له ضرورة أن يخلق لنفسه ذاكرة.[104]

استخدمت الثقافة الألم لترويض هذا الكائن النوعي كوسيلة وعملة تبادل لنسيان الخسارة فيما بين الأفراد. وتجسد هذا العقاب في علاقة الدائن بالمدين، حيث جعلت العدالة كعقاب الكائن النوعي مسؤولا عن دينه.[105] وقد شكلت هذه العلاقة المتبادلة البداية الأولى لتنظيم الحياة الاجتماعية والأخلاقية بين الناس.[106]

باختصار، تشكل مرحلة ما قبل التاريخ، لحظة انتصار القوى الفاعلة على القوى الارتكاسية، فكيف تصور نيتشه مرحلة ما بعد التاريخ؟

[100]- Ibid, pp. 66-67

[101]- نيتشه و الفلسفة، مرجع سابق، ص 171

[102]- نفسه، ص 172

[103]- نفسه، ص 172

[104]- نفسه، ص 171

[105]- Ibid, p. 75

[106]- Ibid, pp. 76-77

ب- مرحلة ما بعد التاريخ:

تكمن أهمية هذه المرحلة، حسب نيتشه، في كونها تسمح بفهم أكبر لكيفية حدوث التحول في هذه السيرورة الطويلة التي بدأت منذ غابر الأزمان إلى هذه المرحلة التي وصفت بكونها "ما بعد-التاريخ". وقد أسهم كل ذلك في العثور على الثمار الأكثر نضجا لهذه الشجرة، حيث تشكل "الفرد العظيم" الذي لم يعد يشبه غير ذاته والمتحرر من أخلاقية العادات. إنه إنسان ما بعد-التاريخ، ذاك الفرد المستقل والمتعالي الذي يحوز إرادته الخاصة به، مستقلة ودائمة.[107]

في ضوء هذه المرحلة، يعتبر نيتشه هذا الإنسان نتاج النشاط الثقافي النوعي القادر على الفعل وبوسعه قطع الوعود. فإذا كانت الثقافة هي العنصر ما قبل التاريخ الخاص بهذا الكائن؛ فإن نتاج هذه الأخيرة (الثقافة) هو العنصر ما بعد التاريخي للإنسان. يقول نيتشه بهذا الخصوص: "... لكن إذا وضعنا أنفسنا في نهاية هذه السيرورة الضخمة، في المكان الذي تنضج فيه الشجرة ثمارها أخيرا، هذا الذي يعطي فيه المجتمع وأخلاقية عاداته أخيرا ما لم يكونا لأجله غير وسيلتين؛ فسوف نجد الآن الثمرة الأكثر نضجا لهذه الشجرة هي الفرد الأسمى الذي لا يشبه غير ذاته، وهو الفرد المتحرر من أخلاقية العادات، المستقل وغير الأخلاقي...إنه باختصار الإنسان صاحب الإرادة النظيفة المستقلة والثابتة، الإنسان الذي في وسعه أن يقطع الوعود..."[108]

يفرق نيتشه إذن، بين أمرين: نتاج الثقافة ووسيلتها؛ فالنشاط النوعي للإنسان يشكل الإنسان المسؤول عن قواه الارتكاسية (المسؤولية والدين)، وهذه المسؤولية هي بالذات الأداة التي يتم بها الترويض والانتقاء، وتقاس بها قدرة القوى الارتكاسية فيما إذا كانت قادرة على أن يفعل بها.

إن نتاج النشاط النوعي للثقافة إذن، هو هذا الإنسان المستقل وغير الأخلاقي، وليس العكس (الإنسان الأخلاقي). لهذا يصبح هذا الكائن فردا سيدا ومشرعا، ومن ثم أمكن تحديده بالقدرة على ذاته وعلى تحمل قدره[109]. إنه الفرد الحر والخفيف الذي لم يعد مسؤولا عن قواه الارتكاسية أمام العدالة، ولكن أصبح الآن سيدها ومالكها ومشرّعها وآمرا لها، ولم يعد مجرد مستجيب خاضع.

إذن، عندما يصبح الإنسان فردا متحررا وغير أخلاقي، يتحرر من العلاقة القديمة السائدة في الماضي: الدائن/المدين، فيصبح الدائن نفسه يشارك السيد حق السيادة، ثم يتحرر المدين بدوره من الإحساس بالمسؤولية القديمة، وهكذا تتشكل علاقة جديدة للحركة العامة للثقافة، حيث تزول الوسيلة في الحصيلة فتصبح: المسؤولية كمسؤولية أمام القانون زائلة، والقانون كقانون أمام العدالة ينمحي، والعدالة كوسيلة للثقافة تتلاشى. كل هذا

107- نيتشه و الفلسفة، مرجع سابق، ص 175

108- F.Nietzshe, généalogie de la morale, op.cit. p.61

109- Dorian Astor, Friedrich Nietzsche: dossier et notes, op. cit, p. 123

يزول في مرحلة ما بعد التاريخ كما يتصورها نيتشه، فاسحا المجال لولادة الإنسان الجديد، الإنسان المتحرر من أخلاق العادات والقوانين ومن العدالة باعتبارها وسيلة للثقافة[110]. وبذلك يمكن أن نعتبر هذه المرحلة مرحلة نموذجية لانتصار القوى الفعلية على القوى الارتكاسية. فماذا عن المرحلة التاريخية؟

ج- مرحلة التاريخ:

يحمل التاريخ هنا معنى مختلفا عن ما قبل التاريخ وما بعده، حيث يصف نيتشه كيف كان انتصار القوى الفاعلة على القوى الارتكاسية، السادة على العبيد. أما بالنسبة للتاريخ أو المرحلة الموصوفة بكونها تاريخية، فسوف يبين فيها نيتشه، كيف كان الانحلال والانحطاط هما الطاغيان عليها. لقد انتصرت قوى الارتكاس على القوى الفاعلة في هذه المرحلة، وذلك بسيادة نماذج تاريخية منحطة: القساوسة والزهاد، المثاليون والعلماء، الوطنيون والديمقراطيون... كان هؤلاء جميعهم مرشدين وموجهين للقطيع الذي ينتسبون إليه بدورهم وهم من سلالته.[111]

هنا يظهر نيتشه التاريخ على أنه الفعل والمجال الذي من خلاله استولت قوى الارتكاس على الثقافة، لتأويلها من خلال مجموعة من القيم والمفاهيم المريضة: كالإحساس بالذنب والخطأ، الخير والشر، المثال الزهدي...وهكذا أصبحت الثقافة تتلقى في التاريخ معاني مختلفة كلية عن جوهرها الخاص بها، حيث أصبحت مأسورة في قبضة القوى السلبية.

لقد شكل التاريخ لحظة تم فيها تشويه الثقافة بامتياز بما هو الانحطاط عينه. ولهذا بدأ يقدم لنا بدل النشاط النوعي، سلالات وشعوبا ودولا وكنائس ومنظمات وجمعيات وطوائف... إنه يقدم بدل العدالة وسيرورة تدميرها الذاتي، مجتمعات لا تريد أن تهلك، ولا تقدر على تخيل شيئا آخر أعلى من قوانينها.[112]

فعيب هذا التاريخ، أنه فيه يجري الخلط بين القوانين والمضامين التي تحددها. وهذه المضامين الارتكاسية التي تثقلها وتمنعها من الزوال، هي مضامين مشحونة بالدين والأخلاق والميتافيزيقا، ناسية أنها أكثر حماقة وثقلا من أي شيء آخر.

لهذا كله، نجد التاريخ يقدم لنا، بدل الفرد السيد كنتاج للثقافة، الإنسان المدجن، إنسان القطيع والكائن المطيع والرديء المعرض للمرض في كل لحظة، أوروبي الأيام المعاصرة[113]. إن دور هذا التاريخ أصبح

[110]- نيتشه و الفلسفة، مرجع سابق، ص 176

[111]- Ibid, p. 124

[112]- نيتشه و الفلسفة، مرجع سابق، ص 177

[113]- ما وراء الخير و الشر، مرجع سابق، ص 72

قاصرا على تقديم كل أنواع وأساليب الترويض معكوسة، محولا مسارها وقلبها لإنتاج الحيوان القطيعي، وهو في سبيل ذلك يستخدم جميع أساليب الانتقاء، لتحطيم الأقوياء وفرز الضعفاء والعبيد.

فالتاريخ بهذا المعنى هو مجرد قلب للتراتب والانتقاء. تاريخ يجعل قوى الارتكاس تقدر على حفظ ذاتها، لتشكل نموذجا ثقافيا مريضا ومحرفا عن مساره. لهذا يعتبر نيتشه أن انتصار القوى الارتكاسية ليس فقط عرضا في التاريخ، بل هو مبدأ التاريخ ومعناه، وهذا ما يستوجب نقده وتجاوزه إلى نوع آخر وممارسة أخرى مخالفة له.

تحتل إذن فكرة انحطاط التاريخ وتأثيرها السلبي على الثقافة الإنسانية حيزا كبيرا في انشغالات نيتشه بأمراض الثقافة والحضارة. ولعل النقد الذي وجهه هذا الأخير للأنساق المثالية والدينية والعقلية خير شاهد على ذلك. ولهذا نجده في هذا النقد المخصص للتاريخ لا يبرح مجرد تفكيك مقولاته ومستنداته الفكرية والميتافيزيقية، بل يتعدى ذلك إلى تقديم نموذج جديد للممارسة التاريخية لا يمت بصلة للأولى، نموذج يعتمد استراتيجية التأويل الجينيالوجي للمسار التاريخي الذي قطعته ونشأت فيه المفاهيم والإحساسات والقيم الأخلاقية، وذلك للشك وفضح مصداقيتها المطلقة باعتماد معرفة منظورية تتوسل صيغة السؤال الشهيرة لدى نيتشه "من؟" الذي يعني وفقا لهذا المنظور الجديد، أنه إذا نظرنا إلى شيء ما، فإننا سنسائله من خلال: ماهي القوى التي تستولي عليه؟ وما هي الإرادة التي تمتلكه تعبر عن نفسها فيه وتتجلى فيه؟. هنا لا نبحث عن ماهية أو جوهر محدد كما هو الشأن في الصيغة الأفلاطونية التالية: "ما هو الحق؟" "ما هو الخير؟"... بل إنه لا يتم الوصول بنا إلى "الجوهر" إلا عبر السؤال: "من؟"، لأن الجوهر هاهنا، حسب نيتشه، ليس سوى معنى الشيء وقيمته[114].

هنا ينشأ المنظور الاختلافي لنموذج نيتشه الذي يردّ صيغة السؤال التقليدي: "ما هو هذا الشيء؟" إلى "ما هو هذا الشيء بالنسبة لي؟" وما هي القوى التي تجعله يظهر بهذا الشكل وليس بشكل آخر؟ ما هي القوى الأخرى التي تخضع لهذه القوى أو تقاومها؟[115] هكذا إذن، يتم اكتشاف جوهر شيء ما في القوة التي تمتلكه وتعبر عن نفسها فيه، فيصبح هذا "الجوهر" مجرد معنى وقيمة.

لقد استفاد نيتشه كثيرا من هذا القلب للسؤال من صيغته الميتافيزيقية: "ما هو هذا الشيء؟" إلى "ماهي القوى التي جعلته على هذا الشكل وليس على شكل آخر؟"، ومن ثم اعتمد صيغة: "من الذي جعله على هذا الحال وليس على حال آخر؟" في تأويله لتاريخ الأخلاق، وتأسيس منظور مخالف للتاريخ بما هو ممارسة "جينيالوجية"؛ أي تاريخ أعراض وإرادات وقوى وليس تاريخ مفاهيم: "الخير" و"الحقيقة" و"الشر"...

[114]- نيتشه و الفلسفة، مرجع سابق، ص ص 98-99

[115]- نفسه، ص 100

يشكل البحث عن الأصل أو الميلاد إذن العنصر الاختلافي للقيم، لهذا أصبحت العودة إلى بداية التاريخ نوعا من التقييم والبحث عن عنصري القوة والضعف؛ أي تشريحا للقيم والأخلاق، وليست تحقيبا للحظات التاريخ. من هذه الزاوية، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نعتبر حديث نيتشه عن "ما قبل التاريخ" و "ما بعد التاريخ" و"التاريخ" مراحل تحقيبية للسيرورة العامة للثقافة، كما يفعل التاريخ الكوني، بل هي تقديم لصيرورة الثقافة ولصراع الإرادات. إن التاريخ هاهنا ليس تقدما لعقل كوني كما يزعم "هيغل"، لكنه لعبة الانتقال من سيطرة إلى أخرى. إنه صوت التاريخ الذي لا يسمعه سوى من يمتلك "الحس التاريخي". فإلى ماذا أفضى هذا المنظور عند نيتشه؟

أفضى منظور نيتشه للتاريخ كـ"جينيالوجيا" إلى رفض جذري للتصور السكوني الذي يعتبر كل شيء ثابتا، مثلما حصل في التصور الديني والميتافيزيقي. وقد نجم عن ذلك إسقاط فكرة الإله أو العقل المحرك للتاريخ الذي يتقدم به إلى الأمام كما زعم "هيغل"؛ إضافة إلى جعل الإنسان خاضعا للصيرورة، مثلما يخضع لها كل شيء في الوجود. لذا لم يعد بالإمكان القول بوجود حقائق ثابتة وخالدة.

وقد وضع هذا المنظور الجينالوجي التاريخ في أفق آخر يقطع مع التصورات التمثلية والميتافيزيقية السائدة منذ أفلاطون إلى هيغل، بعدما أعاد نيتشه الاعتبار لفكرة الصيرورة ضاربا صفحا عن فكرة التسلسل الزمني، مكرسا فكرة انعدام النظام والدقة العقلية والمنهجية كما يزعم القدماء. لذلك لم يعد العالم بحاجة إلى المنطق أو قانون يسيره اللهم إلا قانونه الأسمى الذي هو الفوضى والصيرورة الدائمة.

ترتب عن هذه الدعوى القول بانتفاء الغائية عن العالم، وإزالة صفة الألوهية عن الطبيعة ونفي إرادة الإله في تسيير التاريخ. وقد سمح ذلك لنيتشه بالقول بصراع الإرادات كمحرك للتاريخ بدل الإله المدبر، فاعتبر الصراع الأبدي « Le conflit éternel » هو الروح المدبرة لأمر التاريخ إلى ما لانهاية، وقد يفسر هذا بأخذه بمنظور هيراقليطس الذي يعتبر الحرب هي ملك الجميع وأبو الجميع، تظهر البعض على أنهم آلهة، وتظهر البعض الآخر على أنهم بشر، فجعلت من البعض عبيدا ومن البعض الآخر أحرارا.

خاتمة

ليس نقد نيتشه للتاريخ إذن، بما هو معرفة ناشئة في القرن التاسع عشر، سوى الاعتراض القوي على المنظور الذي وضعت فيه الفلسفة المثالية الممارسة التاريخية كأداة لتأسيس الحقائق والمعارف اليقينية. لهذا، فهو يعترض على الخلفية الميتافيزيقية والدينية الثاوية خلف هذا التاريخ كما أسس لها هيغل بالأساس. لذلك يقيم نيتشه تعارضا أساسيا بين التاريخ والحياة بما تمثله من حيوية وإرادة وعنفوان، بينما يظل التاريخ بمعناه التقليدي ضارا بها وبقوتها الحيوية.

يستمد هذا التعارض القائم بين التاريخ والحياة، كما يتصوره نيتشه في "اعتبارات في غير أوانها"، أساسه من هذا الضرر الذي يتسبب فيه التاريخ للقوى الحيوية التي تحكم الحياة، عندما يفسح المجال لقوى الارتكاس (الأخلاق، القيم الدينية، المثل الزهدي...) لتسيطر على هذه القوى الحيوية، ومن ثم انكماش القوى الفاعلة التي تحرك هذه الحياة.

لقد فحص نيتشه الممارسة التاريخية في "اعتبارات في غير أوانها" بالشكل الذي يسمح له أن يبين الضرر الذي يتسبب فيه هذا التاريخ للأفراد والشعوب والحضارة، فوضّح أن ما يعزز هذا الضرر الكبير الذي يسبب فيه التاريخ للحياة هو غياب "الحس التاريخي" لدى معظم المؤرخين، وهذا ما سبب في تكريس المنظور الميتافيزيقي بما هو منظور يمجد الحقيقة ويبث القوانين العقلية مسبقا في التاريخ، مما جعل مقولة الموضوعية تأخذ مكانة اعتبارية كبيرة لدى المؤرخين، حيث جعلوا منها مرتكزا أيديولوجيا لنمط اشتغالهم. لكن، وعلى خلاف تاريخ المؤرخين هذا، يقترح نيتشه في "ما وراء الخير والشر" وكذلك في "جينيالوجيا الأخلاق" منظورا جديدا للممارسة التاريخية. إنه المنظور الذي لا يمجد المعرفة ولا القوانين العقلية التي يسحبها المؤرخون على تاريخهم، بل يحتفي بالصيرورة بما هي فكرة مضادة للتصور السكوني للتاريخ، والتي تفتح المجال للاختلاف والنسبية والتناقضات، حتى تعبر عن ذاتها.

إذن، يجعل نيتشه التاريخ ممارسة جينيالوجية تعيد تقييم الأصول والقيم والأفكار، استنادا إلى منظورية راديكالية تبحث عن مواطن الضعف والقوة، وتقوم بتشريح علاقات القوى التي تحكم هذه الأصول والمعارف والقيم ثم الثقافة برمتها؛ ولهذا لا يمكن اعتبار الممارسة التاريخية بما هي جينيالوجيا نوعا من تحقيب التاريخ، بل ممارسة نقدية تسعى إلى تقويض وهدم وتفكيك الثقافة الدينية والمثالية التي تجد ضالتها في هذا التاريخ. بهذا المعنى الجديد للتاريخ، أصبح المنظور النتشوي فلسفة مضادة للنزعات التاريخية والتاريخانية في القرن 19م.

البيبليوغرافيا

أولا- بالعربية:

- نيتشه، **ما وراء الخير و الشر**، ترجمة حسان بورقية، طبعة 2006
- جيل دولوز، **نيتشه والفلسفة**، ترجمة أسامة الجامعية للدراسات و النشر، الطبعة 2 ، لبنان، 2001
- جمال مفرج، **نيتشه: الفيلسوف الثائر**، بيروت- افريقيا الشرق، ط1، 2003
- ميشيل فوكو، **جينيالوجيا المعرفة**، ترجمة أحمد السطاتي و عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، بدون تاريخ.
- كاترين كوليو- تولين، **ماكس فيبر والتاريخ**، ترجمة جورج كتورة، دار المؤسسة الجامعية، الطبعة 1، بيروت، 1994
- عزالدين الخطابي، **في الفلسفة السياسية و الأخلاقية**، منشورات عالم التربية، الطبعة 1، 2004
- عبد الرحمان بدوي، **النقد التاريخي**، وكالة المطبوعات، الطبعة 4، الكويت، 1981
- عبد الرحمان بدوي، **الموسوعة الفلسفية**، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة 1، بيروت، 1984

ثانيا- بالفرنسية:

- F.Nietzshe, considérations inactuelles, trad. Pierre Rusch. tomes 1 et 2, Gallimard, 1990
- F.Nietzshe, généalogie de la morale, trad. Isabelle Heldenbrand et Jean Gratier, Gallimard, 1971
- F.Nietzshe, Aurore, trad. Julien Hervier, Gallimard, 1980.
- M. Foucault et autres, Lectures de Nietzsche, livre de poche, L.G.F., 2000
- Dorian Astor, Frédéric Nietzsche : dossier et notes, in Folio plus philosophie, Gallimard, 2006

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com